تقارير

أفغانستان في استراتيجية الأمن القومي الإيراني
ورؤيتها لدور طالبان والوجود الأجنبي

حسن أحمديان*

23 فبراير/ شباط 2020

Al Jazeera Centre for Studies
Tel: +974 40158384
jcforstudies@aljazeera.net
http://studies.aljazeera.net

(الجزيرة)

بمبادرة الأمين العام للمجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، علي شمخاني، التأم في طهران مؤتمر الأمن الإقليمي حول أفغانستان، في 18 ديسمبر/كانون الأول 2019، بمشاركة عالية المستوى ضمت مستشارين للأمن القومي ومسؤولين أمنيين مرموقين من أفغانستان وروسيا والصين والهند وطاجيكستان وأوزبكستان. وفي الأشهر السالفة، زارت وفود حركة طالبان الأفغانية العاصمة، طهران، حيث عقدت اجتماعات وُصفت بالمهمة مع مسؤولين إيرانيين. يشير الاهتمام الإيراني المتصاعد بالملف الأفغاني ومفاوضاتها العلنية مع حركة طالبان إلى تطورات بدأت تُستشف في طهران تجاه جارتها الشرقية. تهتم هذه الورقة بقراءة أسباب وحيثيات التطورات في رؤية طهران لأفغانستان ودوافع وحدود تغيير موقفها تجاه حركة طالبان.

طالبان تفرض نفسها

منذ غزو الولايات المتحدة لأفغانستان، عام 2001، حتى اليوم لم تستقر جارة إيران الشرقية التي تحدها بـ987 كيلومترًا وتؤثر عليها أمنيًّا واقتصاديًّا. إيران الرافضة للغزو الأميركي -لأسباب أمنية- باركت سقوط حركة طالبان التي لم تُخْفِ عداءها لطهران يومًا بل أبرزته بوضوح تام عند قتلها تسعة دبلوماسيين وصحفيًّا إيرانيًّا بعد الاستيلاء على القنصلية الإيرانية في مزار شريف، عام 1998(1). وهي الحادثة التي كادت تُقحم الجارتين في حرب لولا تدخل المرشد الأعلى، آية الله علي خامنئي، لمنعها(2). دعمت الولايات المتحدة تحالف الشمال المدعوم إيرانيًّا عند غزوها أفغانستان وأبرز ذلك وجهًا من أوجه التقارب الاستراتيجي للخصمين اللدودين في الملف الأفغاني(3) . كما قامت طهران بدعم العملية السياسية التي وُضِعت لبناتها في اجتماعات بون بألمانيا، عام 2001، حيث لعبت طهران دورًا بنَّاءً في التوصل لحلول للقضايا العالقة(4)، وأوصلت تلك العملية أصدقاء إيران ورفاقها في مواجهة طالبان إلى الحكم.

استجد الكثير منذ تلك الفترة وأسَّس لواقع مختلف عن الذي ارتأته كل من واشنطن وطهران. فرغم تلقيها ضربة بدت قاضية عند الغزو، لملمت حركة طالبان المتبقي من قوتها وتأثيرها على الأرض وتمكنت -بعد سنوات عجاف مرَّت على الحركة- من فرض نفسها رقمًا يستحيل تجاهله. إلى جانب الروح القتالية والعقيدة المترسخة لدى أعضائها، أسعف الحركة في ذلك - كما برز في الكثير من التقارير والوثائق المسربة- الدعم الباكستاني والسعودي. ولكلٍّ من الدولتين حسابات اجتمعت في دعم طالبان وإعادتها إلى الواجهة. فقد أوضحت الوساطة السعودية بين الحكومة الأفغانية وممثلي طالبان، عام 2008(5) أن

الرياض تنظر بإيجابية لعودة طالبان، الحركة البشتونية الأقرب للأيديولوجية الرسمية للدولة السعودية، إلى العملية السياسية والحكم. ناهيك عن القيمة التي ارتأتها السعودية في دعم السياسة الباكستانية باعتبارها منافسًا للنفوذ الإيراني في أفغانستان(6). أما في حسابات باكستان، فيمثل حكم حركة طالبان عمقًا استراتيجيًّا لها أمام الهند، ناهيك عن إعطائه باكستان دورًا أكبر في رسم المستقبل الأفغاني وزيادة تأثيرها الإقليمي بالتالي. وقد يوضح ذلك عدم مشاركتها في مؤتمر الأمن الإقليمي في العاصمة الإيرانية، طهران.

وبالفعل، استطاعت الحركة وعبر تبنيها استراتيجية مبنية على مواجهة الاحتلال والحكومة الأفغانية، باعتبارها امتدادًا للاحتلال، أن تعيد السيطرة على أجزاء واسعة من أفغانستان وأن تفرض على سكان تلك المناطق الولاء والقبول بالأمر الواقع. وأهم من ذلك القبول المتدرج للأطراف الخارجية المؤثرة بالواقع الذي فرضته طالبان عبر ما قارب العقدين من مواجهة العملية السياسية والقائمين عليها عسكريًّا. تسيطر طالبان اليوم على ما يقارب نصف أفغانستان ومحادثات السلام تضفي طابعًا رسميًّا على قوة الحركة (7). لذلك بدأت طالبان مفاوضاتها مع عدة جهات؛ فها هي الولايات المتحدة تفاوض طالبان في مسار تفاوضي يوازي مفاوضة طهران للحركة بمستويات غير مسبوقة. وقد انتقلت السياسة الأميركية من مفاوضة "طالبان المعتدلة"(8) في حقبة أوباما إلى مفاوضة قيادة الحركة دون تمييز. بذلك، تغيرت رؤية كل من طهران وواشنطن تجاه حركة طالبان نتيجة تغير الظروف الأمنية والسياسية في أفغانستان ونتج عن ذلك التغيير ثلاثة استنتاجات بُنيت عليها ضرورة التفاوض مع طالبان:

- أولًا: استحالة سيطرة الحكومة الأفغانية على كامل التراب الأفغاني في ظل سيطرة طالبان على نصف البلاد.
- ثانيًا: النتائج العكسية المترتبة على الاستمرار بعزل طالبان سياسيًّا إذ يزيد ذلك من تمسكها بالحل العسكري.
- ثالثًا: ونتيجة للافتراضين آنفَي الذكر، فإن السلام الأفغاني دون إشراك طالبان بات أمرًا مستحيلًا.

بذلك، تغيرت القناعات حول الواقع الأفغاني في طهران كما في عواصم الدول المحيطة بأفغانستان والمؤثرة فيها وانتقل الجميع بالتالي من التساؤل حول جدوى إشراك طالبان من عدمه إلى كيف؟ وبأي شروط يجب إشراك الحركة في العملية السياسية؟ وكان كلام ظريف حول عدم إمكانية تصور مستقبل أفغانستان دون طالبان تعبيرًا واضحًا عن هذا التغيير(9). وفي ظل هذه القناعة، جرت مفاوضات مع حركة طالبان في غير مسار بغية التوصل إلى صيغة تنهي الصراع الأفغاني وتضمن عدم انجرار أفغانستان إلى الحرب الأهلية في القادم من الأعوام خاصة بعد انسحاب القوات الأجنبية منها.

إلا أن الهدف من التفاوض مع طالبان ناهيك عن عملية التفاوض ذاتها أتت مختلفة الشكل والمضمون بين واشنطن من جهة وإيران من جهة أخرى. فبينما تفاوض واشنطن طالبان بشكل مباشر ودون إشراك الحكومة الأفغانية بحيثيات المفاوضات، ترى طهران من الضروري إحاطة الحكومة الأفغانية علمًا بالمفاوضات وأخذ رأيها تهيئة للمرحلة التالية التي ستشهد مفاوضات مباشرة بين الجانبين. وبينما لا ترى واشنطن ضرورة في أن تشمل المفاوضات جارات أفغانستان، أظهرت طهران الأهمية التي توليها لمشاركة الدول الجارة في أي اتفاق مستقبلي مع طالبان أو بين الحكومة الأفغانية والحركة. بشكل عام، تتعاطى واشنطن مع طالبان وفق رؤيتها، التي يُجمع عليها الحزبان الجمهوري والديمقراطي، المتمثلة بعودة الجنود الأميركيين إلى بلادهم مع بقاء قواعد أميركية في أفغانستان دون اهتمام مماثل بآثار هذه السياسة على المستقبل الأفغاني، تركِّز طهران -الجارة التي ستبقى تتأثر بالحادث في أفغانستان أمنيًّا وسياسيًّا- على نتائج أي مفاوضات والاتفاقات المحتملة على مستقبل أفغانستان.

إعادة الحسابات

لم تكن أفغانستان يومًا بعيدة عن حسابات استراتيجية الأمن القومي الإيرانية بعد ثورتها الإسلامية، عام 1979. ففي المرحلة الأولى، وبعد أن أثار احتلال الاتحاد السوفيتي لأفغانستان حفيظة طهران المنشغلة بحربها مع عراق البعث المدعوم غربيًّا وعربيًّا على حدودها الغربية، باتت إيران تشعر بتهديد كبير آخر على حدودها الشرقية. رفضت طهران الاحتلال وبدأت بدعم المقاومة الأفغانية ضده. ورغم ابتعاد الحركات الرئيسية للمقاومة الأفغانية عن طهران أيديولوجيًّا وسياسيًّا، استطاعت إيران شقَّ طريق لحماية أصدقائها في أفغانستان على حاشية المقاومة الأفغانية. ونزح نتيجة الحرب الأفغانية أكثر من ثلاثة ملايين من المواطنين الأفغان إلى المدن الإيرانية وأثقلت الاضطرابات على الحدود الممتدة لـ978 كيلومترًا بين البلدين كاهل مؤسساتها الأمنية والعسكرية طيلة الثمانينات والتسعينات. كما أدى صعود طالبان إلى إضعاف حلفاء إيران وتراجع دورهم وسيطرتهم شيئًا فشيئًا حتى انحسرت في منطقة في الشمال الأفغاني في نهاية التسعينات.

لذلك، وعندما بدأت الولايات المتحدة التحرك لغزو أفغانستان، باركت طهران تلقي حلفائها في حلف الشمال دعم واشنطن للمشاركة في إسقاط طالبان؛ ذلك رغم تخوف طهران الواضح من الحضور العسكري الأميركي على حدودها الشرقية. وبين ذلك التخوف والواقع الذي كان سيُفرض نفسه بأية حال، نأت طهران بنفسها رسميًّا ودعمت العملية لوجستيًّا وتكلَّل التأييد الإيراني بدعمها العملية السياسية التي تلت الاحتلال. هدفت إيران من دعمها للعملية السياسية منع صعود قوة/جهة معادية لها في أفغانستان. وبالفعل، استطاعت طهران من خلال مشاركتها في العملية السياسية التي انطلقت من بون بألمانيا، عام 2001، أن تُسهم في إرساء النظام السياسي البديل ولعبت، حسب المشاركين في الاجتماع ومنهم الولايات المتحدة، دورًا بنَّاءً في توفيق الرؤى الأفغانية في ذلك الاجتماع.

بقيت السياسة الإيرانية داعمة للنظام السياسي في أفغانستان رغم رفضها بقاء القوات الأجنبية هناك. من هنا، برزت أكبر إشكالية واجهت الاستراتيجية الإيرانية في أفغانستان: فمن جهة، كان الإصرار الإيراني على ضرورة إجلاء القوات الأجنبية من أفغانستان وعودة الإدارة الأمنية والعسكرية للبلاد إلى الحكومة الأفغانية. ومن جهة أخرى، استمرت طهران في دعم الحكومة في مواجهتها حراك حركة طالبان العسكري المتزايد ضد الحكومة الأفغانية. وتبرز الإشكالية في واقع أن إجلاء القوات الأجنبية كان من شأنه إضعاف الحكومة الأفغانية بشكل أكبر أمام تحدي طالبان المتصاعد. وكانت الأولوية الإيرانية ترجِّح تثبيت الوضع للحكومة الأفغانية على جلاء القوات الأجنبية رغم تمسك خطابها بضرورة الجلاء في نفس الفترة. لذلك، انتقلت إيران في المرحلة الأخيرة لتوفيق مطالبتها بجلاء القوات الأجنبية ودعمها الحكومة الأفغانية من خلال مفاوضات مع طالبان هدفت لإشراك الحركة في العملية السياسية وتهيئة الظروف للجلاء دون أن يأتي ذلك على العملية ذاتها.

إعادة ترتيب الأولويات

لم تكن أولويات طهران في أفغانستان وليدة آمالها بل كانت تعكس الواقع الذي تلا الاحتلال عام 2001. فقد بدت نهاية نفوذ طالبان بعد سقوط حكومتها وسيطرتها على الأرض أمرًا مسلَّمًا للمؤثرين في أفغانستان رغم قول البعض: إن الحركة ستُبقي على بعض نفوذها في السنوات المقبلة. إلا أن عودة الحركة للسيطرة المتدرجة على الأرض واستمرار الدعم الإقليمي لها بات أمرًا يستحيل إغفاله في تحديد اتجاهات المستقبل الأفغاني. بذلك، توصلت طهران إلى ضرورة إعادة النظر في سلم أولوياتها والتوفيق بين هدفيها الرئيسيين في أفغانستان. ونتيجة لذلك برزت ضرورة التفاوض مع طالبان وإشراكها في العملية السلمية.

تعايشت طهران مع الوجود الأجنبي في أفغانستان معطية تقوية الحكومة الأفغانية أمام تحدي طالبان الأولوية معتبرة ذلك الحضور يصب في ذات الاتجاه. يليها في الأولويات الإيرانية ضرورة إجلاء القوات الأجنبية وذلك بعد/أثناء استقرار الأمر للحكومة الأفغانية. بيد أن واقع زيادة قوة حركة طالبان رغم الدأب المتواصل لإنهاء نفوذها ووجودها على الأراضي الأفغانية فرض نفسه على طهران وغيرها. بذلك، اتضح أن الأولويات الإيرانية لا تماشي الواقع الأفغاني وتطوراته. ويمكن تعداد الأسباب الرئيسية في تغيير أولويات طهران في أفغانستان في السببين التاليين:

أولًا: تزايد قوة طالبان وفشل القوات الأجنبية: كان الحضور الأجنبي بعد سقوط طالبان يُمثل ضمانًا أمام استعادة حركة طالبان قوتها وذلك إلى أن تتمكن الحكومة الأفغانية من فرض سيطرتها وتثبيت قوتها أمام التحديات الداخلية وعلى رأسها تحدي حركة طالبان. إلا أن الفرضية القائلة بأن التعايش مرحليًّا مع الحضور الأجنبي في أفغانستان يُسعف الحكومة الأفغانية ويؤدي بالتالي إلى تراجع قوة حركة طالبان، تراجعت بشكل متدرج. أي إن الحضور الأجنبي فشل في تحقيق الأولوية الإيرانية الأولى في أفغانستان؛ فقد تزايدت قوة طالبان واتسعت مساحات سيطرتها رغم الوجود الأجنبي.

ثانيًا: انتقال تنظيم دولة إلى أفغانستان ومؤامرة الولايات المتحدة: حسب الرؤية السائدة في طهران، فإنه بالإضافة لفشله أمام طالبان، أسهم الحضور الأجنبي في ظهور تنظيم الدولة على الأرض الأفغانية. وترى القيادات العسكرية والسياسية كما الدوائر الاستراتيجية في طهران مصلحة أميركية في انتقال تنظيم الدولة من سوريا والعراق إلى أفغانستان حيث يمكِّنها من زعزعة الحدود الإيرانية-الأفغانية وتقريب تهديد تنظيم الدولة إلى الحدود الصينية وإلى جمهوريات آسيا الوسطى وروسيا بالتالي. والدول الثلاث (إيران، وروسيا، والصين) كانت قد طُرحت في آخر تقرير للأمن القومي الأميركي (ديسمبر/كانون الأول 2017) كتهديدات رئيسية(10). بعبارة أخرى، وحسب رؤية طهران، بات الحضور الأجنبي والأميركي بشكل خاص، يُسهم بل ويُساعد تنظيم الدولة في ضرب استقرار أفغانستان لمواجهة التهديدات المرئية من واشنطن (الدول الثلاث المذكورة آنفًا).

كان للظرف الراهن أيضًا دور مؤثر في تغيير أولويات طهران في أفغانستان. فلولا سياسة الضغط الأقصى الأميركية على إيران والمواجهات الإقليمية بين واشنطن وطهران في إطارها الأوسع، كان من الأرجح تريث طهران في الانتقال لأولوياتها الجديدة في أفغانستان. ويمكن تحديد الظرف المسرِّع لانتقال طهران لأولوياتها الجديدة في أفغانستان في العاملين الرئيسيين التاليين:

أولًا: إفشال الاتفاق النووي والضغط على طهران: مع نقض الولايات المتحدة التزامها بالاتفاق النووي وإعادة فرضها عقوبات أحادية أوسع وأمضى تأثيرًا من تلك الملغاة نتيجة الاتفاق النووي، تراجعت في طهران المقومات المنطقية المرجحة للتفاوض والدبلوماسية أداةً للتوصل إلى حلول وسط مع واشنطن. ولم يكن ذلك على مستوى الاتفاق النووي فقط بل انتقل ليشمل باقي الخلافات وبشكل خاص الملفات التي تركز عليها إدارة ترامب: برنامج إيران للصواريخ الباليستية وسياسة إيران الإقليمية. وتشكِّل أفغانستان أحد محاور الصراع رغم قول أغلب الدوائر الاستراتيجية في الدولتين، أي إيران والولايات المتحدة، باشتراك المصالح الاستراتيجية لهما هناك. مع تبني واشنطن سياسة الضغط الأقصى لحمل طهران على القبول بطاولة مفاوضات حسب المطلوب أميركيًّا ولجوئها للتهديد والوعيد بل وانتقالها للمواجهة العسكرية والأمنية، كعملية اغتيال قائد فيلق القدس في مطار بغداد، أصبح الحضور الأميركي والأجنبي يمثل تهديدًا مباشرًا على الأمن القومي الإيراني. أضف إلى ذلك أن ترجيح واشنطن رؤية أحادية على المصالح الاستراتيجية المشتركة مع طهران، دفع الأخيرة إلى النظر إلى الملفات المشتركة كأدوات ضغط. وسرَّع ذلك انتقال طهران إلى أولوية إخراج القوات الأجنبية من أفغانستان.

ثانيًا: إضعاف وتحجيم دور محور المقاومة: وفي إطار سياسة الضغط الأقصى، تطورت الرؤية الأميركية للدور الإيراني من التعايش معه في سياسة أوصلت الطرفين لتعاون مرحلي في قضايا كمواجهة تنظيم الدولة، إلى ضرورة تحجيم وإضعاف

ذلك الدور. وشمل ذلك إطارًا جغرافيًّا ضمَّ إيران وحلفاءها في محور المقاومة. ولتمسكها بالتناسب الاستراتيجي (strategic proportionality) في ردودها على التهديدات الخارجية، تغيرت الأولوية الإيرانية من التعايش مع الحضور الأميركي في المنطقة إلى التركيز على ضرورة إضعافه لتقزيم التهديد الذي يمثله. وبرز هذا الخطاب بأوضح وجه بعد اغتيال واشنطن الجنرال سليماني، قائد لواء القدس في الحرس الثوري الإيراني. فقد انتقلت واشنطن في ثلاث مراحل متتالية من التعايش إلى الضغط فالمواجهة وأتى ذلك على المنطق الإيراني المرجِّح للدبلوماسية مع واشنطن.

لذلك، يمكن اعتبار المتغير الأميركي عاملًا مسرِّعًا في إعادة طهران النظر في أولوياتها إزاء الملف الأفغاني بينما كانت التطورات الداخلية في أفغانستان وعلى رأسها صعود قوة طالبان وانتقال تنظيم الدولة إليها عاملين محوريين في ذلك التغيير. بدأت طهران في ظل الواقع الجديد إعادة ترتيب أولوياتها الأفغانية وبدأت مفاوضاتها مع طالبان بناء على الأولويات الجديدة. والواضح أن تاريخ العداء المتبادل منع الطرفين من القبول بالتفاوض في فترات سابقة. إلا أن الواقع الجديد فرض على الجانبين التعاون وتغليب المصلحة المشتركة. أضف إلى ذلك، بروز قيادات تتسم ببراغماتية أكبر في صفوف الحركة.

بدء مرحلة جديدة

سبقت التقارير والمواقف المتبادلة في السنوات الأخيرة إعلان الأمين العام للمجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني مفاوضة طهران حركة طالبان. جرت تلك المفاوضات بالتنسيق مع الحكومة الأفغانية بل وجرى بعضها بإشراف الحكومة في كابول أثناء زيارة على شمخاني لأفغانستان العام الماضي(11). وتهدف المفاوضات، حسب شمخاني، للعمل على تحسين الوضع الأمني في أفغانستان(12). وكانت زيارة قيادات عالية المستوى من حركة طالبان إلى طهران مثار اهتمام واسع في إيران(13). وتتالت زيارات وفود طالبان إلى طهران حيث التقت مسؤولين كبارًا منهم وزير الخارجية، محمد جواد ظريف(14). وإن كان صعود قوة طالبان وظهور تنظيم الدولة قد دفع طهران لإعادة ترتيب أولوياتها الأفغانية في ظل تصعيد واشنطن ضد إيران، فثمة أسباب لترجيح طهران المفاوضات مع الحركة في المرحلة الراهنة يمكن تلخيصها كالتالي: تغليب المصالح والرؤى المشتركة أمام الولايات المتحدة: خلافًا لمرحلة الاحتلال والإطاحة بحكومة طالبان، برز في مراحل لاحقة اتجاهان متوازيان أنتجا التغيير الإيراني المستحدث. تمثل الاتجاه الأول في تقارب مطَّرد في الرؤية السلبية لكل من طالبان وإيران تجاه الولايات المتحدة. وعَكَسَ الاتجاه الثاني انحدار مستوى ثقة إيران بواشنطن، وهو أمر يمكن تقصيه في رؤية طالبان للولايات المتحدة أيضًا. تُدرك طالبان -كما إيران- أن التعويل على التعاون مع واشنطن حتى إن وُثِّق باتفاقيات قد ينتهي بتغيير الرؤية الحاكمة على البيت الأبيض. وانعكس ذلك على المفاوضات المتقطعة لطالبان مع واشنطن كما برزت هذه الرؤية المشتركة بشكل خاص في بيان طالبان المنذِّد "باغتيال الجنرال سليماني على أيدي القوات الأميركية المتوحشة وتأكيدها استمرار الجهاد أمام التوحش والاحتلال الأميركيين"(15). نجم هذا التقارب عن واقع السياسة الأميركية وإدراكهما ضرورة التعاون في المرحلة المقبلة أمام تلك السياسة.

بناء الجسور والحد من الأعباء الأمنية: أفغانيًّا، وبناء على التقليد الدارج، نظرت طهران إلى الصعود المتدرج لحركة طالبان كتهديد يجب التعاطي معه لاستبدال فرص به أو تحييده على الأقل. بعبارة أخرى، ومع مواتاة اتجاه الرياح الأفغانية سفنَ طالبان، بدرت في الأفق إمكانية عودة الحركة للحكم في أفغانستان. وتطمح طهران للتقارب من الحركة عبر لعب دور الوسيط؛ فالحركة بحاجة للشرعية الإقليمية والدولية في مرحلة الصعود، ويُعد القبول الإيراني بها جزءًا من المستقبل الأفغاني مكسبًا مشرعنًا لوضعها الإقليمي لن تفرّط به الحركة. بذلك، تهدف إيران أولًا إلى تحييد التهديد المتمثل بالحركة ضد إيران وأصدقائها في أفغانستان أمام إضفاء الشرعية الإقليمية على عودة الحركة؛ وثانيًا: تبحث طهران عن تمكين الأطراف الأفغانية من التعاون في العملية السياسية وتثبيت نفسها وسيطًا فعالًا أمام الحد من عدم الاستقرار المُثقل لكاهل طهران الأمني.

الأقلمة أمام الدولنة: تحاول طهران عبر أقلمة الملف الأفغاني بين الدول المحيطة أو المتأثرة بها جغرافيًّا إبعاد أفغانستان عن الأجندة الدولية. وغني عن القول أن هذا الدأب يأتي أولًا أمام السياسة الأميركية التي تحاول عبر مفاوضة طالبان تحديد وجهة المرحلة المقبلة في أفغانستان؛ فقد كان على شمخاني واضحًا عند تلخيصه نتائج مؤتمر الأمن الإقليمي بالقول إنه ليس بمقدور واشنطن عزل طهران(16). وبينما تتهم طهران واشنطن بالقفز على العملية السياسية عبر مفاوضاتها غير المنسقة مع الحكومة الأفغانية(17)، تحاول عبر مفاوضات إقليمية بمشاركة الحكومة الأفغانية، وكذلك مفاوضاتها مع طالبان بالتنسيق مع الحكومة الأفغانية، كسبَ شرعية أفغانية ودولية في مواجهتها الأجندة الأميركية. ويمكن تلخيص المطروح في هذا الإطار في نقطتين رئيسيتين: الأولى: إحداث مسارات موازية وتوافقية تحد من شرعية السياسة الأحادية للولايات المتحدة؛ والثانية: تأطير السلام الأفغاني بأطر إقليمية أقرب لأولويات إيران تركز بين أهدافها على ضرورة خروج القوات الأجنبية من أفغانستان.

الحفاظ على المصالح الاقتصادية: يمثل التبادل التجاري الإيراني-الأفغاني رقمًا لا يُستهان به في مجموع تجارة إيران الخارجية الإيرانية. فقد ازدادت صادرات إيران إلى أفغانستان ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل ست سنوات لتصل إلى 3 مليارات دولار في عام 2018(18). وأتى هذا التطور المتدرج للتجارة البينية نتيجة توقيع عدة اتفاقيات بين الدولتين من أهمها اتفاقية التعاون الاقتصادي والأمني الموقعة عام 2012(19). وتُوِّج هذا التعاون بتوقيع اتفاقية ثلاثية حول تنمية ميناء تشابهار كخط أرضي يوصل الاقتصاد الهندي بأفغانستان وجمهوريات آسيا الوسطى عبر إيران(20) ضمت إلى جانب الدولتين الهند -وكانت الولايات المتحدة قد أعفت تشابهار من عقوباتها ضد إيران لدورها في تنمية أفغانستان وتجارتها الخارجية(21).

تمثل هذه المصالح الاقتصادية عنصرًا رئيسًا في توجيه سياسات إيران حيال أفغانستان. وغني عن القول: إن التطورات الأمنية والسياسية المستقبلية في أفغانستان ستأتي على هذه المصالح إن كانت ستضع إيران طرفًا في الصراع هناك. لذلك، تحرص طهران على الوقوف على مسافة واحدة من اللاعبين في أفغانستان رغم صعوبة ذلك في ظل التجاذبات في الداخل الأفغاني.

في مثل هذا الظرف، بدأت طهران مفاوضاتها المباشرة مع حركة طالبان. تطمح طهران من خلال المفاوضات إلى الحد من أخطار المرحلة المقبلة على مصالحها وأمنها القوميين. كما تبحث عن المشاركة الفعالة في تضمين العملية السياسية التي ستشمل طالبان أولويتها الأفغانية المركزة على إخراج القوات الأجنبية. ومن خلال تركيزها على ضرورة أن تتم أي مفاوضات مع طالبان بعلم الحكومة الأفغانية، تحاول طهران تهيئة الظروف لوضع تلتئم فيه القوى الأفغانية والحكومة أمام تهديدين توليهما طهران أولوية قصوى: تنظيم الدولة في أفغانستان وقد حاربته الحكومة وطالبان، والحضور الأجنبي باعتباره يضر بالمصلحة القومية الأفغانية كما الإيرانية. بالإضافة لذلك، تبدو طهران -من خلال محاولتها القيام بدور فعال في أفغانستان- دافعة ضد سياسة الضغط الأقصى ومحاولات واشنطن عزلها عن محيطها؛ فلم ينفضَّ جمع جارات أفغانستان في طهران حتى صرح شمخاني: "لا يمكن عزلنا". وذلك هدف يمكن رصده في تحركات إقليمية أخرى لإيران سبقت الانفتاح والمفاوضات المعلنة مع طالبان وتلتها.

خلاصة

دعمت طهران إسقاط حكومة طالبان ولعبت دورًا فعالًا في إرساء اللبنات الأساسية للعملية السياسية التي تلت احتلال أفغانستان. وأولت في تلك المرحلة تثبيت الوضع الأفغاني أمنيًّا وسياسيًّا وتمكين الحكومة الأفغانية أمام التحديات الداخلية

اهتمامًا أولويًّا قياسًا بأولويتها الثانية المتمثلة بضرورة خروج القوات الأجنبية من أفغانستان. ومع فرض طالبان وضعًا مختلفًا عبر تمددها المتدرج في أجزاء واسعة من أفغانستان، بدأت طهران بإعادة حساباتها الأفغانية؛ فقد بات جليًّا أن استتباب الأمن والاستقرار في أفغانستان لن يأتي باستمرار إقصاء حركة طالبان من العملية السياسية. لذلك تغيرت الأولويات الإيرانية في أفغانستان وبدأ ترجيح طهران إخراج القوات الأجنبية بعد اتضاح فشلها في تمكين الحكومة الأفغانية بل وإسعافها -حسب الرسميين الإيرانيين- حركة تنظيم الدولة بالتغلغل في أفغانستان وذلك لضرب أعداء الولايات المتحدة، أي: إيران وروسيا والصين.

ورغم أن زيادة قوة واتساع رقعة تمدد طالبان إلى جانب ظهور تنظيم الدولة في أفغانستان كانا عاملين رئيسين في إعادة طهران النظر في أولوياتها، كان لسياسة واشنطن الضغط الأقصى ومحاولة عزل إيران وإضعاف حلفائها في المنطقة دور مسرِّع للتغيير الإيراني. لذلك، بدأت المفاوضات الإيرانية مع طالبان التي اختلفت في الشكل والمضمون عن المفاوضات الأميركية مع طالبان من حيث إحاطة طهران الحكومة الأفغانية علمًا بتفاصيلها ومحاولتها إشراك الأطراف الإقليمية في المفاوضات. وحسب رؤية طهران، فإن السلام يجب أن يكون أفغانيًّا-أفغانيًّا بدعم خارجي لا أن يُفرض دوليًّا على الأفغان. وتهدف طهران من مفاوضاتها إلى تحقيق أربعة أهداف رئيسية: أولًا: تقريب وجهات النظر أمام الولايات المتحدة وسياساتها في أفغانستان. ثانيًا: لعب دور وسيط يُقرِّب الأطراف الأفغانية ويضمن سلامًا أفغانيًّا-أفغانيًّا، وتقليص أعباء إيران الأمنية في المرحلة المقبلة بالتالي. ثالثًا: ترجيح حلول إقليمية إجماعية أمام الأجندة الأميركية الأحادية في أفغانستان. رابعًا: الحفاظ على المصالح الاقتصادية لإيران في المستقبل الأفغاني.

***حسن أحمديان**، باحث وأستاذ جامعي إيراني، متخصص في العلوم السياسية.

مراجع

(1) "پشت پرده قتل دیپلماتهای ایرانی در مزار شریف" (خلف کواليس قتل الدبلوماسيين الإيرانيين في مزار شريف)، موقع تابناك، 17 مرداد 1390(تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/37OQjLS
(2) چرا ایران از حمله به افغانستان در دوره دولت اصلاحات منصرف شد؟ "لماذا عدلت إيران عن مهاجمة أفغانستان خلال فترة الإصلاحات؟"، موقع خبر أونلاين، 8 مرداد 1398، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020):
(3) Seyed Hossain Mousavian and Shahir Shahidsaless, Iran and the United States, An Insider's View on the Failed Past and the Road to Peace, London: Bloomsbury Publishing, 2014, p. 167.
(4) يشرح موسويان تفاصيل الدور والتعاون الإيراني في تلك المرحلة في كتابه المذكور سلفًا.
(5) Greg Bruno, "Saudi Arabia and the Future of Afghanistan," Council on Foreign Relations, December 10, 2008. "accessed January 30, 2020", https://on.cfr.org/32q0g15.
(6) Guido Steinberg and Nils Woermer, Exploring Iran and Saudi Arabia's Interests in Afghanistan and Pakistan: Stakeholders or Spoilers – A Zero Sum Game? Part 1: Saudi Arabia, CIDO Policy Research Project, April 2013, p. 2.
(7) Susannah George, "Inside the Taliban's Afghanistan, violence remains the path to power," The Washington Post, December 20, 2019. "accessed February 11, 2020", https://wapo.st/32iISLG.
(8) Ashley J. Tellis, Reconciling with the Taliban: Toward an Alternative Grand Strategy in Afghanistan, Carnegie Endowment for International Peace, 2009, p. 7.
(9) "ظریف: ترسیم آینده افغانستان بدون در نظر گرفتن طالبان، غیرممکن است" (ظريف: لا يمكن رسم ملامح مستقبل أفغانستان دون أخذ طالبان في الحسبان)، موقع شفقنا، 9 يناير/كانون الثاني 2019، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2HKcg3Y.
(10) National Security Strategy of the United States of America, The White House, December 2017, "accessed February 11, 2020", https://bit.ly/2TbNeQN.
(11) "روایت رسانه های داخلی از سفر هیات سیاسی طالبان به تهران" (رواية وسائل الإعلام الداخلية عن زيارة وفد طالبان السياسي طهران)، وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية إرنا، 27 شهريور 1398، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/3a16Mhx.
(12) "شمخاني: گفتگوهاي إيران با طالبان با اطلاع دولت افغانستان بوده است" (شمخاني: مفاوضات إيران مع طالبان جرت بعلم الحكومة الأفغانية) وكالة أنباء تسنيم، 5 دي 1397، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2Vemvpb.
(13) "سفر هیأت طالبان به تهران به رهبري عبدالسلام حنفي" (زيارة وفد طالبان بقيادة عبد السلام حنفي طهران)، وكالة أنباء ايسنا، 26 شهريور 1398، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2PkWKzU.
(14) "گفتگوي ظريف با رئيس دفتر سياسي طالبان" (محادثة ظريف رئيس المكتب السياسي لطالبان)، وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية إرنا، 6 آذر 1398(تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2HKe4Kt.
(15) "بيانيه مهم طالبان در ارتباط با ترور سردار سليماني" (بيان طالبان المهم حول اغتيال الجنرال سليماني)، موقع مشرق نيوز، 15 دى 1398، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2SOLiOW.
(16) "شمخاني: إيران تسليم پذير نيست" (شمخاني: إيران غير قابلة للاستسلام)، وكالة أنباء إيسنا، 27 آذر 1398، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/37WZt9f.
(17) "ظریف خطاب به آمریکایی‌ها: ایران را با نوکران خود اشتباه گرفتید/ با تروریست‌های اقتصادی مذاکره نمی کنیم" (ظريف مخاطبًا الأميركيين: لا تخلطوا بين إيران وخدمكم، لن نفاوض الإرهابيين الاقتصاديين)، وكالة أنباء فارس نيوز، 14 مرداد 1398، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/39YQkyg.
(18) "آمار صادرات سال 1397 افغانستان" (أرقام الصادرات لأفغانستان عام 2018)، اتاق بازرگاني، صنايع، معادن وكشاورزي تهران، (تاريخ الدخول: 18 يناير/كانون الثاني 2020): https://bit.ly/2VhueTs.
(19) "إيران وأفغانستان موافقتنامه همكارى اقتصادى وامنيتي امضا كردند" (إيران وأفغانستان توقِّعان اتفاقية للتعاون الاقتصادي والأمني)، موقع أفغانستان ما، 16 سنبله (شهريور) 1391، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/32iJCR3.
(20) "إيران، هند و أفغانستان در چابهار به هم رسيدند" (إلتقاء إيران والهند وأفغانستان في تشابهار)، وكالة أنباء ايسنا، 5 دى 1397، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2VhahMK.
(21) "چرا أميركا بندر چابهار را از تحريم ها معاف كرد؟" (لماذا أعفت أميركا ميناء تشابهار من العقوبات؟)، موقع تابناك، 19 اسفند 1397، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/شباط 2020)، https://bit.ly/2SSfn0f.